ISSN: 1994-4217 (Print) 2518-5586(online)

Journal of College of Education

Available online at: https://eduj.uowasit.edu.iq

Assi.Teach. Bahaa El Din Tarish Daoud

Prof. Dr. Ismail Khalbas Hammadi*

Wasit University/ College of Education for Human Sciences

Email:
Bahaaaldeen588@gmail.com
07801940482

Keywords:

Intent, Poetry of imprisonment and captivity,Study, Pragmatic

A r t i c l e i n f o

Article history:
Received 1.July.2022
Accepted 20. July.2022
Published 1. Aug.2022

B Intentionality in the poetry of pre-Islamic prisons and Captivity: A pragmatic study

A B S T R A C T

Research and studies that dealt with the pragmatic approach and sought to reveal its characteristics resorted to the use of specific literary forms, such as theatrical discourse; Because of its techniques that make it somewhat closer to everyday discourse, which I found pragmatics to study, describing it as (the study of language in use) according to the most famous definition of it.

As for our research, it was the use of pragmatism to reveal the implications of the poetic discourse of prisoners and jailers and what was said about them alike; as it represents an interactive discourse of a dialogical nature in most cases.

It is well known that pragmatism is divided into many sections, but we have chosen (intentionality); as it constitutes an important section linked with the rest of the sections.

The most important problem that the research deals with remains: the attempt of the pragmatic approach with poetic texts.

© 2022 EDUJ, College of Education for Human Science, Wasit University

DOI: https://doi.org/10.31185/eduj.Vol48.Iss3.3203

المقصديّة في شعر السجون والأسر الجاهليّ: دراسة تداوليّة

أ.د. إسماعيل خلباص حمادي م.م. بهاء الدين طارش داود

جامعة واسط / كلية التربية للعلوم الإنسانية

الملخص

لجأت البحوث والدراسات التي تناولت المنهج التداولي والتي سعت إلى كشف خصائصها إلى الاستعانة بأشكال أدبية محددة، مثل الخطاب المسرحي؛ لما فيه من تقنيات تجعله إلى حد ما أقرب للخطاب اليومي، الذي وجدت التداولية لدراسته، بوصفها (دراسة اللغة في الاستعمال) حسب أشهر تعريف لها. وأمّا في بحثنا هذا فكانت الاستعانة بالتداولية للكشف عن مضمرات الخطاب الشعري للسجناء والسجانين وما قيل فيهما على حد سواء؛ كونه يمثّل خطاباً تفاعلياً وذا طبيعة حوارية في أغلب الأحيان. وممّا لا يخفى على أحد تشعّب التداولية إلى أقسام عديدة، غير أننّا اخترنا (المقصدية)؛ كونه يشكّل قسماً مهماً له ارتباط مع باقي الأقسام.

وتبقى أهم مشكلة يعالجها البحث هي: محاولة المقاربة التداولية مع النصوص الشعرية.

الكلمات المفتاحية: المقصدية ، شعر السجون والأسر، دراسة، التداولية.

المقدمة:

استعمل الإنسان اللغة للتواصل مع الآخر لبيان قصده، وتحقيق مراده، غير أن أهمية اللغة تتعدى وظيفة الإخبار، إلى إنجاز أعمال لا يُمكن إنجازها من دونها، فما يتم التبادل به ليس اللغة على وفق مصطلح (دي سوسير)، بل الخطاب الذي يستلهم المعنى من الخارج، وبوساطته يُنقل الكلام من الدلالة على الحدث المجرد من الزمن إلى الدلالة على الاسمية، فأصبح في عرف الأصوليين يدل على ما خوطب به، وهو الكلام (ينظر: حمادي، 1994، 21).

ويُعد القصد بمعناه المعجمي عنصراً مهماً من عناصر التخاطب في النصوص التواصلية والإعلامية والشرعية والقانونية والسياسية؛ كون الطابع القصدي ينظمها جميعاً، والاهتمام به يحيل لزاماً على الاهتمام بالمتكلّم. ويعد عنصراً فاعلاً في تضمين المعنى في الخطاب من جهة، وفي تأويل المخاطَب لها، من جهة أخرى؛ إذ عليه يتوقف التأويل خاصة إذا كنّا نقصد أكثر مما تدل عليه دلالات الكلمات والجمل.

القصديّة أو المقصدية:

إنَّ المقصدية، أو القصديّة محورٌ من محاور التداولية؛ إذ تتناول الدراسات التداولية مقصديّة النص باهتمام بالغ وتدرس أبعاد العملية التواصلية؛ لإدراك المبادئ التي توجّه المتكلِّم لحظة إنتاج الخطاب، بما يضمن نجاح تقديم المعطيات التي يرغب بتقديمها، من جهة، وتساعد المخاطَب على إدراك هذه المعطيات ومعرفتها من جهة ثانية.

وأكثرُ من ذلك أنَّ البعض من الدارسين قد قصرَ التداوليةَ على معرفة القصد، إذ جاءَ في أحد تعريفاتها: "التداولية فرع من علم اللغة يبحث في كيفيّة اكتشاف السامع مقاصد المتكلّم، أو هو دراسة معنى المتكلِّم" (نحلة، 2011، 13)، فبيان القصد من مرتكزات فهم الخطاب، بوصفه جزءاً من سياق النص الشعري الذي لا يمكن إلّا أن يكون نسبياً؛ فالشعر ليس وحدةً "متجانسة في كل زمان وفي كل مكان، فإذا نظرنا إلى النصوص الشعرية العربية القديمة ... وجدنا أنّها لا تروي النص معزولاً عن محيط إنتاجه، بل تضع كلَّ نص، مقطوعة كان أم قصيدة، في سياقه حتى أن النصوص تبدو أحداثاً تؤرِّخ لأحداث" (خطابي، 1991، 297–298)، فيما تغيبُ هذه السمة عن النصوص الشعرية الحديثة إلى حدّ ما. والعناصر الأساسية التي تشكّل سياق الخطاب/ النص بحسب تصنيف هايمس، هي: "المتكلّم، والمخاطَب، والمشاركون، والموضوع، والقناة، والمقام، والسنن، وجنس الرسالة، والحدث، والمقصد"، أو الاكتفاء بمعرفة "هوية المتكلّم والمتلقي، والإطار الزماني والمكاني للحدث اللغوي" (براون و يول، 1997، 35).

وترتكز العملية القصدية التواصلية على محوري المرسل والمتلقي، فيسعى المتكلّم إلى بلوغ هدف محدد من خلال قصد كلامه، ويبحث المتلقي في خطاب المتكلم عن مراده، ولإتمام العملية التواصلية يختار المتكلم وسائل لغوية مناسبة تستوعب قصده، وهي ما أصبح يُطلق عليها (إستراتيجيات الخطاب)، التي هي: "الطرائق التي توصّل مقاصد المرسِل وتعين على إدارة دفة الحديث أي حديث، وبها يكمن توافق الخطاب، أيّاً كان نوعه، مع السياق سواء أكان السياق سياقاً عامّاً أم سياقاً خاصاً" (الشهري، 2004، ix). والإستراتيجيات اللغوية كثيرة ومتعددة يخضع تصنيفها لمعايير محددة؛ ولأنّها تعنى بدراسة اللغة في الاستعمال كان المنهج التداولي أقدر من غيره على كشفها، فالخطاب المُنجز هو خطابٌ مُخطّط له.

لقد كانت المقصدية أو القصدية أو القصد من بين أهم ما ركز عليه الباحثون التداوليون، وهو ما جعلهم يطرحون أسئلة مثل: هل يمكن وجود خطاب دون مقاصد؟ هل نستطيع بناء نص دون مقصد؟ ما علاقة الخطاب بمقاصد الإنسان؟ هل

تُعد القصدية عنصراً أساسياً في إنتاج الخطاب؟ وكيف يعبّر المتكلّم عن مقاصدهِ باستعمال اللغة؟ وكيف يدرك المتلقي، بوصفه طرفاً في عملية التخاطب، تلك المقاصد وفهمها؟

وأمّا القصدية بالمنظور الفلسفي، فهي: "توجه الوعي نحو موضوعه، أو العلاقة التي تربط الوعي بمضمون ظاهرة ما" (بونفقة، 2011، 95). وقد شغل مصطلح القصدية الأبحاث والدراسات الحديثة في مجال تحليل الخطاب وفهم الكلام، وقد تناوله الفلاسفة في نظرية استعمال اللغة، فدرسه (أوستن) ومن بعدهِ (سيرل) على أنَّ هذا المصطلح ظهر مفهوماً فلسفياً في الفلسفة الظاهراتية (الفينولوجيا)، على يد (إدموند هوسرل)، حين ذهب يبحث عن العلاقة بين العقل والموجودات فوجد أنَّ الوعي لا يكون مستقلاً ولكنه وعي بشيءٍ ما، فكان الطابع القصدي للوعي، أي العلاقة بين الوعي والوجود، فالوعي يحيل إلى موضوع معيّن، وأفعاله لا تكون واعية إلا عندما تندمج مع موضوعاتها، فالعلاقة بين الوعي والموضوعات علاقة ارتباط مباشر، وأمّا القصدية فلا تتحقق إلّا باتحاد الذاتي والموضوعي (ينظر: بونفقة،2011، 95-96) وأفرزت هذه الفلسفة عدة نظريات لاحقة، أشهرها: نظرية أفعال الكلام لأوستن وسيرل، ونظرية الاستلزام الحواري لجرايس في بحثه الموسوم (المنطق والحوار)، وأوجد مبدأ التعاون بين طرفي الحوار حتى يصل كل منهما إلى مقصد الآخر، حيث يعبّر المرسلِ عن قصدهِ مع ضمان قدرة المرسل إليه على فهم القصد وتأويله.

ولا بدَّ من التفريق بين المعاني والمقاصد ابتداءً، وتجدر الإشارة إلى أنَّ اللغويين لم يفرّقوا بين المعنى والقصد؛ فقد جاء في لسان العرب: "لا يُقال عُنيتُ بحاجتك إلّا على معنى قصدتُها، من قولكَ عَنَيْتُ الشيء أعنيه، إذا كنتَ قاصداً له، وعنيتُ بالقولِ كذا: أردتُ. ومعنى كلِّ كلام ومعناته ومعنِيَّتُهُ: مَقصدهُ" (ابن منظور، 1999، عنى، قصد). فالمعاني "تُفهم من المواضعات اللغوية، في حين أنّه لا بدَّ لاستنباط المقاصد من الوقوف على القرائن اللفظية والمعنوية والاستعانة بالقدرات الاستنتاجية والتأمل في الأصول التخاطبية" (علي، 2016، 92)، فليس المعنى هو الهدف الأساسي في المقاربة التخاطبية، بل أصبح مرحلة مؤقتة للوصول إلى القصد، وفي الوقت نفسه يمكن عدّه (أي المعنى) خطوة اجرائية لبلوغ مقصد المتكلم، فهو انتقال بالمدلول لغاية أخرى هي كشف المراد من الخطاب، أو مقصده، أو غايته.

كما يمكن القول: أنّه "يمكن أن يُفهم المعنى دون أن يُدرك المقصد، وهو أمر شائع في المخاطبات، وقد ذمَّ القرآن كفار قريش بوصفه لهم أنّهم (لا يفقهون)، مع أنّهم عرب أقحاح يفهمون معاني الكلام، ولكنهم يخفقون في فهم مقاصد الشارع" (المصدر نفسه، 93). وتنتمي المقاصد إلى الكلام والاستعمال، بينما تنتمي المعاني الى اللغة والوضع، ولذلك يمكن الحديث عن "معاني الجمل ومقاصد القولات، على افتراض أن الجمل كيانات وضعية مجردة، والقولات هي التحققات الفعلية للجمل في المقامات التخاطبية" (المصدر نفسه، والصفحة نفسها).

لقد درس علماء العربية القدماء أثر السياق في المعنى والقصد من اللغة ووجوه استعمالها، غير أنَّ مفهوم القصد عندهم اختلف إلى حدٍ ما عن مفهومه عند التداوليين، ففي النظرية التداولية مثّل الغاية والهدف، وانبنى على فهم المتلقي لا ما أراده المرسِل، وهو بالتأكيد خلاف ما ذهب إليه علماء العربية حين عدّوا القصد غاية المتكلّم، يقول ابن جني (ت 392هـ) في تعريف اللغة: " أمّا حدّها فإنّها أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم" (جني، 1952، 1: 32). غير أننا نجد المقصدية في سياق التداولية تعني: "الدلالة والفهم؛ لأن الدلالة تعني ضرورة قصد التواصل من قبل المرسل، والفهم يعني الاعتراف من قبل المتلقي بقصد تواصل المرسل" (مفتاح، 1992، 163).

لقد أولت الدراسات التداولية بدايةً الاهتمام بالمتكلّم ورأت فيه القوّة التي تمتلك سلطة توجيه المخاطَب وعدّت المتلقي في مرتبة أدنى حيث ينفّذ الأوامر التي تصدر له من المرسِل وهو ما سُمي بـ (التواصل التوجيهي)، بيد أنَّ هذا التصوّر سرعان ما انهار حين عُدّت المقصدية قاسماً مشتركاً بين المرسِل والمرسل إليه، وإنمّا الفرق بينهما يكمن في من يُمسك بزمام المبادرة، بل أنَّ هناك مَن رأى "أن المقصدية قد يتحكم فيها المتلقي، فيجعل المتكلّم في قبضة يده، فيتصرف فيه

كيفما يشاء، ثم يضطر المتكلم إلى تكييف خطابه حسب رغبات المتلقي، بل قد يكون ناطقا بلسانه" (مفتاح، دينامية النص، 1987، 46)، فالأمر جُلُّهُ يتعلّق بالسلطة وقوّتها، أي سلطة الخطاب، ومقامات التواصل؛ فإن كان المتلقي صاحب السلطة وجبَ على المتكلّم مراعاة مقامهِ، وتكييف خطابه على وفق أهواء المُخاطَب، وقد جاء في الخبر أنَّ الشاعر (عبيد بن الأبرص) لمّا حبسه حُجر بن الحارث بن عمرو مع نفر من بني أسد إذ امتنعوا عن أداء الإتاوة للملك، فأخذ سراتهم وأباح أموالهم، وأقسم بالله ألّا يساكنوهم في بلد أبداً، قال كما جاء في الأغاني: (الأصفهاني، 2008، 9: 62-63):

وفي ديوان الشاعر (عدرة، 1994، 108-109): أيُّها الملك اسمع مقالتي (من مجزوء الكامل)

يـــا عَـــينِ فَـــابكي مـــا بَنـــي	أَسَـــدٍ فَهُـــمْ أَهـــلُ النَدامَـــةْ
حِـــلًّا أَبَيـــتَ اللَعـــنَ حِـــ	ـــلًّا إِنَّ فيمـــا قُلـــتَ آمَـــةْ
فـــي كُـــلِّ وادٍ بَـــينَ يَثـــ	ـــرِبَ فَالقُصـــورِ إِلـــى اليَمامَـــةْ
تَطريـــبُ عـــانٍ أَو صِـــيا	حُ مُحَـــرَّقٍ أَو صَـــوتُ هامَـــةْ
وَمَنَعـــتَهُمْ نَجـــدًا فَقَـــد	حَلّـــوا عَلـــى وَجَـــلٍ تِهامَـــةْ
إِمّـــا تَرَكـــتَ تَرَكـــتَ عَفـــ	ـــوًا أَو قَتَلـــتَ فَـــلا مَلامَـــةْ
أَنـــتَ المَليـــكُ عَلَـــيهِمُ	وَهُـــمُ العَبيـــدُ إِلـــى القِيامَـــةْ
ذَلّـــوا لِسَـــوطِكَ مِثـــلَ مـــا	ذَلَّ الأُشَـــيقِرُ ذو الخِزامَـــةْ

إنَّ النظر في أبيات الشاعر عبيد بن الأبرص يكشف لنا أن المُخاطَب وهو الملك حُجر بن الحارث كان صاحب المَسْكِ بزمام المبادرة، وهو صاحب السلطة على المتكلِّم (أنت المليك عليهم)؛ فكيّفَ الشاعر خطابه على وفقِ رغبات المتلقي فأظهر الندم هو وقومه (هم العبيد)، والتوسل بالملكِ للتخلي عن قسمه بنفي قبيلة الشاعر عن مواطن سكناهم (حِلّاً أبيت اللعن)، والأخيرة مما تُخاطب به الملوك، ووصفه إياهم بأنهم عبيدٌ إلى يوم القيامة، بل ترك الخيار للملك أن يعفوا عنهم (تركت عفواً)، أو أن يقتلهم دون أن يلومه لائم (أو قتلت فلا ملامة) فهم مذنبون، ويستحقون الذل الذي نالوه، إنَّ كلَّ ما سبق وظّفه الشاعر بناءً على رغبات الملك حيث مثّل (السلطة) فيما يحب أن يسمع ويرى، وأما المقصد فهو طلب العفو والصفح عن الشاعر وقومه، وقد نجح الشاعر في خطابه بعد أن استطاع إرضاء الملك بما صاغه الشاعر من خطاب يتناسب ونوازع المتلقي ومن ثمَّ إطلاق سراح الأسرى، والعفو عنهم، والتخلّي عن قسمه.

ويوصف النص الأدبي بأنّهُ ملفوظات لغوية تتضمّن مقاصد مباشرة وضمنية يعبر عنها المرسِل أو المرسَل إليه أو كلاهما. بمعنى أنَّ هناك مقاصد أولية تختص بالمرسل الشاعر، كالكراهية والحب والاعتقاد والخوف .. الخ، وهناك مقاصد ثانوية، تختص بالمتلقي الذي عليه أن يفهم مقاصد المبدع، ولا بدَّ حينذاك أن يعرف الحالة الوجدانية والذهنية والنفسية للمرسل.

ومن أمثلة المقاصد المباشرة: قول امرئ القيس (إبراهيم، 1984، 200)، في جماعة من بني آكل المرار الكنديين، وقد فتك بهم المنذر بن ماء السماء بعد أن غدر بهم وأسرهم (الدين، 2002، 18): (من الوافر)

ألا يـــا عَـــينُ بَكِّـــي لـــي شَـــنِينَا ... وَبَكِّـــي لـــي الملـــوكَ الـــذَّاهِبِينَا

مُلُوكًـــا مِـــن بَنِـــي حُجْـــرِ بـــنِ عَمْـــرٍو ... يُسَـــــاقُونَ العَشِـــــيَّةَ يُقْتَلُونَـــــا

فلـــو فـــي يَـــومِ مَعْرَكَـــةٍ أُصِـــيبُوا ... ولكـــنْ فـــي دِيـــارِ بنـــي مَرِينَـــا

فلـــمْ تُغْسَـــلْ جَمَـــاجِمُهُمْ بِغِسْـــلٍ ... ولكـــــنْ بالـــــدِّمَاءِ مُرَمَّلِينَـــــا

تَظَـــلُّ الطَّيـــرُ عَاكِفَـــةً علـــيهِمْ ... وَتَنْتَـــــزِعُ الحَوَاجِـــــبَ والعُيُونَـــــا

فالشاعر يُخاطب ذاته، وظاهر اللفظ كباطنهِ، ومقصده دلَّ عليه اللفظ، وهو رثاء قومه الذين غدر بهم المنذر، والنص مليءٌ بالعاطفة، رسم الشاعر من خلاله صورة عاطفية عكست مشاعره، فهم (ملوك من بني حُجْر) قُتلوا بذلّة رسّخت هذا المعنى لفظة (يُساقون) بما تحمله من خضوع وانقياد لآسريهم، ولم يكن اختيار وقت (العشيّة) اعتباطاً، بل لإضفاء جوٍّ من الحزن والكآبة من جهة، ولتثبيت فعل الغدر من جهة أخرى، فلو كان لسبب ما لقتلهم نهاراً! ويُخبر الشاعر أنّه لو كان قتلهم في معركة لم يكن ليبلغ حزنه عليهم هذا المبلغ، ولكن لأنّهم قُتلوا ظُلماً في (ديار بني مرينا) بعيداً عن أهلهم فلم يُغسلوا بغِسل، وأضحوا طعاماً للسباع من الطيور. إنَّ الإحساس الصادق للشاعر إزاء ما ألمَّ ببعض قومه جعل من ألفاظه واضحة وعفوية، ومن ثمَّ وضوح مقصده الذي عبّر عنه مباشرة.

وأما المقاصد الضمنية الثانوية، فمنها قول عدي بن زيد مخاطباً أخاه، وقد كتب له من السجن (المعيبد، 1965، 164): (من المتقارب)

أَبلِـــغ أُبَيّـــاً عَلـــى نَأيِـــــــــهِ ... وَهَـــل يَنفَـــعُ المَـــرءَ مـــا قَـــد عَلِـــمْ

بِـــأَنَّ أَخـــاكَ شَـــقيقَ الفُـــــــؤا ... دِ كُنـــتَ بِـــهِ وَاثِقـــاً مـــا سَلِـــــمْ

لَـــدى مَلِـــكٍ موثَـــقٌ فـــي الحَديـــدِ ... إِمّـــا بِحَـــــقٍّ وَإِمّـــا ظُلِـــــــمْ

فَـــلا أَعرِفَنـــكَ كَـــدَأبِ الغُـــــــلا ... مِ مـــا لَـــم يَجِـــد عارِمـــاً يَعتَـــرِمْ

فَأَرضُـــــكَ أَرضُـــــكَ إِن تَأتَـــــــنِا ... نَـــنَم لَيلَـــةً لَـــيسَ فيهـــا حُـــلُـــــمْ

أخبرَ الشاعر أخاه على الرغم من بُعدهِ (على نأيهِ) مستعملاً إشارة اجتماعية للتأثير بهِ (شقيق الفؤاد)، بأنه موثق في سجن الملك النعمان، ولأسباب قد تكون محقة أو ظالمة، وكم تمنّى الشاعر أن يلتقي بأخيه فيرجع الود حتى أنهما ينامان معاً (ننم) لا يكدّر صفو هذه الليلة أي شيء. هذا ظاهر اللفظ، أمّا مضمره: فالنأي مقصود وهو قطيعة بين الأخوين، وإخبار الأخ بحبس أخيه لا يحتاج إلى مُبلِغ فهو معلوم من قبل الجميع، ولكن القصد في هذه الأبيات هي تحريض الأخ على فكّه من أسرهِ وسجنه، والطلب منه أن لا يألوَ جهداً في خلاصه، فما يعرفه الشاعر عن أخيه أنّه لا يرضى له ذلك، وأسلوب العرض (أرضَكَ أرضكَ) دلَّ على المقصدية المضمرة، وهذا ممّا ينماز به الخطاب الأدبي دون سواه، وهو الركون إلى المقاصد المضمرة خلف الألفاظ الوضعية.

ويوظف الشعراء في النص الأدبي، كلمات وتعبيرات وأسماء أعلام لها قصدية مباشرة وغير مباشرة تدرك بطريقة ظاهرة، أو تفهم بالتضمين والتلميح (حمداوي، 2019، 35). فيوظف الشاعر اللغة في ضوء دلالة قصدية، تتحول قصائده

من خلالها إلى علامات وإشارات ورموز تحمل دلالات مقصدية، تُعرف من قبل المرسل إليه عبر آليات التأويل والتشريح والتفكيك، "إن الشعراء مهما كانت أجناسهم وأمصارهم وأزمنتهم حرصوا على قصدية اللغة الشعرية، بمعنى الارتباط الطبيعي بين الدال والمدلول" (مفتاح، 1987، 56). قال عدي بن زيد (المعيبد، 1965، 87–88): (من الخفيف)

أَيُّهـــا الشـــامِتُ المُعَيِّــــــــرُ بِالـــــ	**دَهـــــرِ أَ أَنــــتَ المُبَـــرَّأُ المَوفـــــورُ**
مَـــن رَأَيــتَ المَنـــونَ خَلَّـــدنَ أَم مَـــن	**ذا عَلَيـــــهِ مِـــن أَن يُضـــامَ خَفيـــرُ**
أَيـــنَ كِســـرى كِســـرى المُلـــوكِ أَنـــو	**شِـــروانُ أَم أَيـــن قَبلَـــهُ سابـــــورُ**
وَبَنـــو الأَصـــفَرِ الملـــوك مُلـــوكُ الـــ	**رومِ لَـــم يَبـــقَ مِـــنهُمُ مَذكـــــورُ**
وَأَخـــو الحَضـــرِ إِذ بَنـــاهُ وَإِذ دِجـــ	**لَـــةُ تُجنـــى إِلَيـــهِ وَالخابـــــورُ**
شـــــادَهُ مَرمَـــراً وَجَلَّلَـــهُ كِلـــ	**ســـاً فَلِلطَيـــرِ فـــي ذُراهُ وُكـــورُ**
لَـــم يَهَبـــهُ رَيـــبُ المَنـــونِ فَبـــادَ الـــ	**مُلـــكُ عَنـــهُ فَبابُـــهُ مَهجـــــورُ**

لقد وظّفَ عدي بن زيد أسماء أعلام مثل: (كسرى أنو شروان، وسابور ذي الأكتاف، وملوك الروم، وصاحب الحضر) لمقصدية ظاهرةٍ هي: اتّساع مُلك من ذكر منهم، ومن ثمَّ موتهم وضياع هذا المُلك، فلا شيء يدوم إلّا وجهه، وعلى المتلقي وهو الملك النعمان أن يتّعظ بمَن مضى فلا يظلم ولا يطغى ولا يغتر بمُلك، وهذه هي المقصدية الأخرى المضمرة، فذكرُ مَن مضى ليس غايته الاتّعاظ أو التذكير بما آلوا إليه فحسب، بل هو استعطاف وطلبٌ من الملك النعمان بأن يمُنَّ على الشاعر بإطلاق سراحه، فيبقى له ذكرٌ خالدٌ، وله فيمن سلفَ موعظة، فلا يبقى للإنسان بعد موته إلا الذكر الجميل.

ويلجأ المتكلم إلى الإظهار والإضمار في كلامه حين يبلّغ رسالة ما، وحسب السياق الذي يردان فيه يؤوّلان تأويلات مختلفة، وعلى وفق الدرس التداولي لقراءة الخطاب ينبغي تجاوز الملفوظ اللغوي إلى السياق؛ إذ يحتوي متضمنات تغني الخطاب فيما لو استُنتجت منه، بوصفها المقصودة من وراء القول. وأمّا سياق التلفظ فيعدُّ نقطة البداية لتحديد أقوال المخاطب، حيث الخطاب يرتبط بالملفوظ والسياق معا، ففي الخطاب الأدبي غالباً ما يُلجأ إلى الإضمار؛ فقد "يعجز المتكلم لأسباب تتعلق باللياقة عن استعمال العبارة المباشرة، فيلجأ إلى الصيغ المضمرة لتذليل عقبة وجود بعض المحرمات في مجتمع معين، وذلك بغية إحباط بعض الرقابات ذات الطابع الأخلاقي أو السياسي أو القانوني والاحتيال على قانون الصمت الذي يحظر التحدث عن بعض الأغراض الخطابية، ففي سياق اجتماعي معين، ثمة العديد من الأمور التي ينبغي إضمارها وعدم الإتيان على ذكرها بشكل مباشر على الأقل" (أوركيوني، 2008، 26). ومن هذه الأمور الإيغال في الحديث عن المشاعر التي تنتاب المرءِ في أحواله المختلفة، وعن الأصمعي أنّه قال: "كان ملك من ملوك غسّان يَعْذِر النساء، لا يبلغه عن امرأة جمالٌ إلّا أخذها، فأخذ بنت يزيد بن الصعق الكلابيّ، وكان أبوها غائباً، فلمّا قَدِمَ أُخبر، فوفد إليه، فصادفه منتدياً، وكان الملك إذا انتدى لا يُحجب عنه أحدٌ، فوقف بين يديه وقال: (من الكامل)

يــا أيُّهــا الملــكُ المُقيــتُ أمــا تَــــــــرى **لــــــيلاً وصُـــــبحاً كيـــــفَ يختلفـــــانِ**

هـــل تَســـتطيعُ الشـــمسَ أن تُـــؤتى بهـــا **لـــــيلاً وهـــل لـــكَ بالمليـــكِ يَـــــــدانِ**

فـــاعلمْ وَأيقِـــنْ أنَّ مُلكـــكَ زائـــــــــــــلٌ **واعلـــمْ بـــأنَّ كمـــا تَـــدينُ تُـــــــدانُ**

فأجابه الملك: (من الكامل)

إنَّ التـــــي سَـــــلَبَتْ فـــؤادكَ خُطَّـــــــــةٌ **مرفوضـــةٌ مِـــلآنَ يـــا ابـــنَ كـــــلابِ**

فـــــارجعْ بحاجتِـــــكَ التـــــي طالبتـــــَها **والحـــــقْ بقومِـــــكَ فـــــي هضـــــابِ إرابِ**

ثمَّ نادى أنَّ هذه السنّةَ مرفوضة" (العسكري، 1988، 2: 140).

كان السياق الاجتماعي متمثّلاً بحضور الملك مع جمعٍ كثير أُشير له في الرواية بقول الأصمعي: (إنَّ الملك إذا انتدى لا يُحجب عنه أحد)، والرقابة الأخلاقية التي تقتضي من الشاعر أن لا يُشهّر بالحادثة، وأن لا يذكرها الملك بالتفصيل صراحةً، اقتضت الإضمار في المقصد، فلفظُ الشاعر يدلُّ على أبياتٍ في الحكمةِ والموعظة، حتى أنَّ أبا عبيدة قال فيها: "ما أُنشدَ هذا البيتَ ملكٌ ظالمٌ إلّا كفَّ من غَرْبه" (المصدر نفسه والصفحة نفسها)، غيرَ أنَّ المقصد الحقيقي لم يكن الموعظة أو الحكمة أو النصيحة، بل كان طلب إطلاق سراح ابنته السبيّة، وبالعودة إلى لفظ الملك، فلم يكن قصده ما أعلن من إخبار للشاعر أنَّ هذه السُنّة مرفوضة من زمن التلفّظ للشاعر بأبياته، ولكنه أضمرَ قصداً هو الموافقة على إطلاق سراح بنت يزيد بن الصعق الكلابي دلَّ عليه قوله: (فارجع بحاجتك التي طالبتها).

وبما أنّنا لا نفهم اللغة ما لم نفهم الخطاب الذي وردت فيه، ولا نفهم الخطاب ما لم يكن هناك تواصل بين الأطراف المتخاطبة، وأساس التواصلِ القصدُ، ندرك عند ذاك أهمية المقصدية في التواصل بوصفها دلالةً وفهماً؛ "فالدلالة تعني ضرورة توافر قصد التواصل من قِبل المرسِل، والفهمُ يعني الاعتراف من قبل المتلقي بقصد تواصل المتلقي" (مفتاح، 1992، 140).

إنَّ التداولية، على سعةِ توجهاتها، غيرَ أنّها تولي التواصل ونجاحه أهميّة كبيرة؛ فما كشف المقاصد وانسجام النص وتماسكه إلّا أدوات لنجاح التواصل بين المتخاطبين وفي النص المذكور آنفاً أضحى الاشتراك بالسياق وفهم مقصد القول من طرفي الخطاب كليهما من أسباب نجاح (التواصل) على وفق مبدأ التعاون –كما سيأتي لاحقاً– وأثمر عن فعلٍ تأثيريّ صريح تمثّل بإجابة الملك لطلب الشاعر وزاد عليه بإعلانه رفض هذه السنّة المقيتة.

وعلى هذا فإنَّ النص الشعري "ليس لعب ألفاظ، وليس نقل تجربة ذاتية وحسب، وإنما يهدف،

فوق ذلك كله، إلى الحث والتحريض. وبهذا المفهوم الأخير، تشمله نظرية: الكلام/ فعل، أو التداولية، وتعني هذه النظرية: أن التحدث يقصد به تبادل الأخبار، وفي الوقت نفسه، يهدف إلى تغيير وضع المتلقي، وتغيير نظام معتقداته، أو تغيير موقفه السلوكي" (مفتاح، 1989، 55)، ومن أمثلته: أنَّ رجلاً من ثُمالة أقام في جوار دريد بن الصمّة، وأنَّ أنساً بن مدركة الخثعمي أغار على بني جشم قوم دريد، فأصاب مال الثماليّ وناساً كانوا جيراناً لدريد، فشاور دريدٌ قومه، فقالوا له: ارحل إلى يزيد بن عبد المدان فيردَّها عليك، فقال دريد: بل أقدّم إليه مِدحةً قبل ذلك وأنظرُ موقعي منه، فبعثَ إلى يزيد قوله: (من الوافر)

بنـــي الـــديّان رُدّوا مـــالَ جـــاري وأســـرى فـــي كُبُـــولهمُ الثقـــالِ

ورُدّوا الســـبي إن شـــئتم بِمَـــنٍّ وإن شـــئتم مُفـــاداةً بمـــالِ

فـــأنتم أهـــلُ عائـــدةٍ وفضـــلٍ وأيـــدٍ فـــي مـــواهبكم طِـــوالِ

وحـــربكُمُ بنـــي الـــديّانِ حـــربٌ يغـــصُّ المـــرءُ منهـــا بـــالزُلالِ

وجـــارتُكم بنـــي الـــديّان بَســـلٌ وجـــاركُم يُعَـــدُّ مـــن العِيـــالِ

فـــأولوني بنـــي الـــديّان خيـــراً أُقِـــرُّ لكـــم بـــه أُخـــرى الليـــالي

فلّما بلغ يزيد شعر دريد قال: وجبَ حقُّ الرجل، فلمّا قدِمَ عليه أكرمه وأحسن مَثواه ووهب له ما طلبه (عبد الرسول، 1985، 149).

وتشير هذه الحكاية إلى جانب مهم في حياة العربي الجاهلي، وهو أثر الخطاب الشعري في المتلقي، ودريد يدرك هذا فلم يرضَ بمشورة قومه أن يذهبَ مباشرةً إلى يزيد بن عبد المدان وهو سيّد قومه آنذاك، وإنّما استعان بالشعرِ لتحقيق غايته؛ فوظّف الخطاب أحسن توظيف لتحقيق مقصده، والمُلاحَظ أنّه ابتدأ خطابه بنداء الجمع وحذف الأداة (بني الديّان)، على الرغم من أنَّ المخاطب هو يزيد لا سواه، ولكنّه كان يمثّل القبيلة فهو سيّدها، وأما حذف أداة النداء فللدلالة على قُرب المنادى وتضامنه معه، أمّا الأفعال التوجيهية المباشرة (رُدّوا مال جاري، رُدّوا السبي، أولوني) إنّما كانت على سبيل الرجاء ودلالتها قوله (إن شئتم)، (أولوني خيراً)، وأمّا الجمل الإخبارية (أنتم أهل فضلٍ) و (حربكم يغصُّ بها المرء) و (جارتكم بَسلٌ).. وغيرها، فلم يكن القصد منها تبادل الأخبار فقط، ولكن هي دعوة لتغيير سلوك يأمله الشاعر من المتلقي، وهو ما حصل؛ إذ أُكرِمَ الشاعرُ ورُدَّ إليه ما أُخذ منه ومن جيرانه، وأُطلق الأسرى.

ولمّا كانت قصدية النص لا تُعطى بشكل مباشر صار لزاماً انفتاح النص على التأويلات المتعددة، وهو ما جعل (أمبرتو إيكو) يعرب عن عجزه في تحديد تجريدي لهذه المقولة ورأى "إذا كان بالإمكان الحديث عن قصديّة النص فإن ذلك مرتبط بتخمينات القارئ(المتلقي)" (إيكو، 2016، 74). وقد ورد في قصيدة عبد يغوث الحارثي، ومطلعها: (من الطويل)

ألا لا تلومـــاني كفـــى اللـــوم مـــا بِيـــا فمـــا لكمـــا فـــي اللـــوم خيـــرٌ ولا لِيـــا

قوله:

أقـــولُ وقـــد شَـــدّوا لِســـاني بنِســـعةٍ أمعشـــرَ تـــيمٍ أطلقـــوا مـــن لِســـانيا

وقد اختلف تأويل هذا البيت عند مَن ذكروا هذه القصيدة المشهورة، فمنهم مَن ذهب إلى أن آسريه شدّوا لسانه بنسعة، وهي قطعة من جلد، حتى لا يهجوهم (ينظر: الأصفهاني، 2008، 16: 228، والضبّي، 1964، 157، والجاحظ، 1998، 4: 45)، غيرَ أنَّ أحمد الحوفي يقول: "ولست أعقلُ هذا، لأنَّ الأسير لا يستطيع أن يهجو، وإنْ هجا فمن يروي هجاءه؟" (الحوفي، 1952، 204)، وقال القالي في ذيل أماليه: "هذا مَثَلٌ؛ لأنَّ اللسان لا يُشد بنسعة وإنّما أراد أفعلوا بي خيراً ينطق لساني بشكركم، فإن لم تفعلوا فلساني مشدودٌ لا يقدر على مدحكم" (القالي، 2001، 677)، ومنهم من جمع الآراء كلها فأوردها في تأويل البيت (ينظر: الفرج، 2004، 589)، وبعد هذا القول يمكن الإشارة إلى اختلاف التأويل لمقصد الشاعر؛ بسبب اختلاف القراءات من واحد لآخر.

إنَّ الجمل والخصائص الترابطية واختيار المفردات تخضع لحالة المتكلم الذهنية والانفعال في موقف معيّن يريد التعبير عنه بهدف حث المتلقي على تفسيره، كإشارة إلى حالته النفسية في وقتٍ ما ومكان ما، أو قد يكون الخطاب تعبيراً عن سياق اجتماعي يرتبط بقصد معيّن، وعند ذاك لا يكون القصد الإخباري متصلاً بقول واحد، بل بمجموعة أقوال تكوّن خطاباً مقصوداً، وقد اقترح (آن روبول وموشلار) نوعين من المقاصد (ريبول و موشلار، 2003، 216):

أولاً: مقاصد متصلة بالقول، وهي: مقاصد موضعية.

ثانياً: مقاصد متصلة بالخطاب، وهي المقصد الإجمالي.

قال عدي بن زيد في سجنه مخاطباً النعمان بن المنذر (المعيبد، 1965، 132): (من الوافر)

أَلاَ مَـــن مُبلِـــغُ النُّعمـــانَ عَنِّـــي ... عَلانِيَـــةً فـــقَد ذَهَـــبَ السِّـــرارُ

بـــأَنَّ المَـــرءَ لَـــم يُخلَـــق حَديـــداً ... ولا هَضبـــاً تَـــوَقَّاهُ الوِبـــارُ

ولَكِـــن كالشِّهـــابِ فـــثَمَّ يَخبُـــو ... وَحَـــادي المَـــوتِ عَنـــهُ مـــا يحـــارُ

فَهَـــل مِـــن خـــالِدٍ إمَّـــا هَلَكنـــا ... وَهـــل بـــالَموتِ يـــا لَلنَّـــاسِ عـــارُ

لقد حوى النص مقاصد موضعية تمثلت بإخبار المتلقي – وهو الملك النعمان– أنَّ الإنسان لا بدَّ أن يموت وهي سنّة الحياة ومن ثمَّ فليس عاراً أن يهلك وهو كالشهاب الذي ينير السماء ثم يخبو، وهي موعظة وحكمة، يمكن استقراءها من النص مباشرةً، غير أنَّ المقصد الإجمالي المرتبط بالخطاب غير ذلك، فمقصد خطاب الشاعر أنَّ صبره نفد (بأنَّ المرء لم يُخلق حديداً)، وأنّه عليم بنهايته (فهل من خالدٍ)، والمقصد الإجمالي كشأنه في أغلب خطاباته التي توجّه بها إلى الملك النعمان هو: الاستعطاف وطلب إطلاقه من سجنه، فالخلود في العمل الذي سيخلّده فيما بعد يتمثّل بالصفح، وهذا يدلّ على تعدد المقاصد والتأويلات في الخطاب الواحد، وممّا لا تخطئه عينان هو فشل خطابات عدي بن زيد كلّها؛ فلم يستطع فيها إقناع الملك من الصفح عنه وإخراجه من السجن، ومن ثمَّ نهاية حياته المعروفة.

لقد أضحى العلم بالمقاصد حاجة أساسيّة لتكوين الخطاب؛ كي يحقق أغراضه، ويستطيع المرسل إيصال مقصده إلى المرسل إليه. ويجد هذا الأخير نفسه ملزماً بمعرفة مراد المتكلم؛ كي يحقق ممارسة فعله التأويلي لتلقي الخطاب، يقول الجرجاني (ت 471هـ): "وقد أجمع العقلاء على أنَّ العلم بمقاصد الناس في محاورتهم علم ضرورة ...، إنَّ الناس إنّما يكلّم بعضهم بعضاً ليعرف السامع غرض المتكلِّم ومقصوده فينبغي أن ينظر إلى مقصود المخبِر من خبره ما هو؟ أهو أن يُعلم السامع وجود المخبِر من المخبَر عنه؟ أم أن يعلمه إثبات المعنى المخبَر به للمخبر عنه؟" (الجرجاني، 1992، 530)، فإن اتجهنا نحو الشعر خاصةً وجدناه "ليس مجرد نشاطٍ عابرٍ يحققه صاحبه وقت فراغه، بل هو نشاط مقصود يلتمس له أسبابه، ويهيء له نفسه وقدراته" (علي أ.، 1988، 255)، ونجدُ في المدونات النقدية لقدماء نقادنا العرب أنَّ القصد مرادفٌ للغرض وانسحب هذا المفهوم على النحاة العرب القدماء إذ يرون فيه "الغاية التواصلية التي يريد المتكلم تحقيقها من الخطاب وقصده منه، وعليه تكون مراعاة الغرض من الكلام في عرف أغلب النحاة، قرينة تساعد في تحديد الوظيفة النحوية للكلمة وبيان دورها في التحليل النحوي للجملة وهي المعاني التي تعارف عليها المعاصرون باسم (القصدية)" (صحراوي، 2005، 200–201)، واشترط عبد القاهر الجرجاني معرفة غرض المتكلم وقصده في تحديد بعض الوظائف النحوية (لا سيما المسند والمسند إليه في كثير من الشواهد العربية) (المصدر نفسه 201).

وقد جاء أنّه أسر المنذر في يوم أوارة من بكر أسرى كثيرة، وكان رجل من قيس بن ثعلبة منقطعاً إلى المنذر، فكلّمه في سبي بكر بن وائل، فأطلقهنَّ جميعاً، فقال الأعشى يفتخر بشفاعة القيسيّ (المولى، البجاوي، و إبراهيم، 1961، 99): (من الطويل)

ومنّـــا الـــذي أعطـــاه بـــالجمعِ ربُّـــهُ	**علـــى فاقـــةٍ وللملـــوكِ هبـــــــاتُها**
ســـبايا بنـــي شـــيبان يـــومَ أُوَارَةٍ	**علـــى النـــارِ إذ تجلـــى لـــه فتياتُـــها**

ففي الوظيفة الإسنادية الأمر متروك للقارئ أو المحلل النحوي في أيّهما يجعل منه مبتدأ (مسند إليه) وأيّهما يجعله خبراً (مسنداً)، أما عبد القاهر فيبيّن خطأ هذا التحليل اعتماداً على غرض المتكلم وقصده (ينظر: الجرجاني، 1992، 374)، فأن تسند إلى (الذي أعطاه بالجمع ربّه)، غير أن تسند إلى (منّا) بما في اللفظ من فخر جماعي، وعلى هذا فالقصد من قول الشاعر هو الذي يحدد المسند إليه والمسند على وفق رأي الجرجاني.

أمّا توجيه المقصدية للخطاب الشعري، فتُبنى المقاصد في خطاب لغويّ فتدلُّ عليها عناصر السياق الذي أُنجز فيها الخطاب من ثمَّ يوظفها المتلقي لفهم مقاصد المتكلّم المبلَّغة له لفهم التأثير الذي يراد تحقيقه منه، فالسياق الذي نبحث عنه عند ذاك (لغوي وغير لغوي – أي سياق الحال –)، فلا "يتكلم المتكلم مع غيره إلا إذا كان لكلامه قصد، وهذا القصد كما يرى الأصوليون محدد عند المتكلم وثابت لا يتغير، وهو لذلك يتخذ من الوسائل الكلامية والمقامية ما يعين السامع على إدراك ما يريد، ولكن مراتب السامعين تتفاوت في إدراك مقصود المتكلمين تبعاً لتفاوت قدراتهم العقلية واللغوية والثقافية" (نحلة، 2011، 89)، على أن القصد قد يلتبس على أهل اللغة إذا وقف عند المعنى الأصلي للألفاظ دون إدراك للمعنى الاستعمالي أو جهل السياق.

لقد كان النقّاد القدماء "يمتدحون الشاعر الموفق الذي يهتدي إلى الكلمة التي تكون شديدة الإبانة عن قصده" (بدوي، 1996، 452)؛ ولذا شاع استعمال مصطلح الغرض للتعبير عن القصد في مؤلفاتهم، يقول حازم القرطاجني (ت 684هـ) متحدثاً عن مطالع القصائد: "فملاك الأمر في كل ذلك أن يكون المفتتح مناسباً لمقصد المتكلم من جميع جهاته، فإذا كان مقصده الفخر كان الوجه أن يعتمد من الألفاظ والنظم والمعاني والأسلوب ما يكون فيه بهاء وتفخيم، وإذا كان المقصد النسيب كان الوجه أن يعتمد منها ما يكون فيه رقة وعذوبة، وكذلك سائر المقاصد" (القرطاجني، 2008، 279).

وينماز الخطاب الفني عموماً، والخطاب الشعري خاصة، بهيمنة الوظيفة الجمالية أو الشعرية عليهما، وتختص بتصوير ذاتية الأديب وتجربته الفنية، فتُمسي المعاني المباشرة والسطحية في العمل الأدبي غير مقصودة، فيضمر الشاعر القصد الحقيقي والمعنى الفعلي وراء الألفاظ الوضعية، ومعاني النص السطحية، فتتداخل المعاني، ويُعبَّر بوساطة الأسلوب الفني، والمجازات عن المعاني الثواني بالمعاني الأُوَل؛ ممّا يُضفي قابلية التأويل وسمة الانفتاح على النص الأدبي، وهذا الانفتاح وتعدد المعنى والقابلية على التأويل يجعل الحكم على معنى أيّ نص أمراً نسبيّاً لا يمكن القطع به؛ لتعدد القراءات للنص ومن ثمَّ تعدد المعاني.

ويقول محمد مفتاح: "إنَّ القصدية تحدد كيفية التعبير والغرض المتوخّى فهي البوصلة التي توجه عناصر القصيدة وتجعلها تتضام وتتضافر وتتجه إلى مقصد عام" (مفتاح، 1992، 53) فالقصدية هي التي تشكل القصيدة في وعي الشاعر، وهذه الأخيرة تعبير عن إحساس الشاعر وانطباعاته إزاء فكرة ما، أو تعاطف مع موضوع، أو تفاعل مع حالة أو حب أو كــره، أو استحسان أو نبذ لأفكار وممارسات حياتية.

أمّا المقصدية في اللسانيات الحديثة فيمكن الإشارة لها من خلال تناول بعض الآراء فيها، حيث رأى (غرايس) "أنَّ كل حدث سواء أكان لغوياً أم غير لغوي إمّا أن يكون محتوياً على نية الدلالة وإما أن لا يكون محتوياً عليها"(المصدر نفسه، 164)، وضرب أمثلة تبيّن النوعين فاحمرار وجنة الفتاة تدل على الخجل وتراكم الغيوم يدل على أن السماء قد تمطر وهكذا، وكلا الحدثين لهما دلالة ولكن ليس فيهما قصد، أما إذا خاطبنا أحداً فنقول: (اكتب) أو (افتح النافذة) وغيرها فهناك قصد يتحكم بهذه الملفوظات، وهكذا، فالعملية التواصلية القصدية تفترض وجود مرسل ومتلقٍ، أي طرفين إنسانيين، "وأنَّ المقاصد أنواع: أولي: يتجلّى في المعتقدات والرغبات التي تكون لدى المتكلم، وثانوي: يكون فيما يعرفه المتلقي من مقاصد المتكلم، وثلاثي: ينعكس في هدف المتكلم الذي يريد أن يجعل المتلقي يعترف بأنه يريد منه جواباً ملائماً" (المصدر نفسه، والصفحة نفسها).

وقد ورد في الأغاني: أنّه زار يزيد بن عبد المدان الملك الغساني ابن جفنة فأكرمه وقرّب مجلسه، فلمّا أراد أن يرتحل سمع رجلاً يقول (الأصفهاني، 2008، 12: 12): (من المتقارب)

أمـــا مـــن شـــفيعٍ مـــن الـــزائرين يُجِـــبُّ الثنـــا زنـــدُهُ ثاقـــبُ

يريـــد ابـــن جفـــنة إكرامـــهُ وقـــد يمســـح الضـــرةَ الحالـــبُ

فينقِذَنـــي مـــن أظافيـــرهِ وإلّا فإنـــي غـــداً ذاهـــبُ

فعلم يزيد أنَّ هذا الرجل هو سجين عند الملك، وحين غدا يزيد على ابن جفنة ليودعه، قال له: حياك الله يا ابن الديّان! حاجتُك. قال: تهب لي الجذاميّ الذي لا شفيع له إلا كرمُك. قال: قد فعلت.

إنَّ طلب الجذامي لشفيعٍ يشفعُ له عند الملك لينقذه من سجنهِ يمثّل مقصداً أولياً، واعتراف يزيد بن عبد المدان برغبة المتكلِّم بالشفاعة بعد أن فهم قصده من خطابهِ يمثّلُ مقصداً ثانوياً، ورغبة المرسِل في تلبية المتلقي للطلب يمثّل المقصد الثلاثي.

غير أنّهَ ليس من الضرورة وجود هذا التواصل المثالي؛ ففي حالات أخرى لغوية أو طبيعية، يقصد المتكلم غرضاً لا يدركه المتلقي وإن حققت أهدافها، وهذا ما نلمسه في التورية والرمز. ففي قصة موت المهلهل، أنَّ الزير سالم عندما كبر وهرم ذهب في أحد الأسفار مع اثنين من خدمهِ ولكثرة ضجرهما منه قرّرا أن يتخلصا منه ويقتلاه فحاول أن يمنعهما ولكنّه لم يفلح؛ لكبر سنه وضياع قوته فأوصاهما أن يقولا لابنتيه بعد قتله (القوال، 1995، 13): (من الكامل)

مَـــنْ مُبلِـــغ الأقـــوامَ أنَّ مهلهـــلا لله درُّكمـــــــا ودرُّ أبيكمـــــــا

فلما قتلاه ذهبا الى حي المهلهل وهما يتباكيان، ولمّا سمعتهما ابنته قالت للقوم: إنَّ العبدين قتلا أبي، وإنّما أراد:

مَـــنْ مُبلِـــغ الأقـــوامَ أنَّ مهلهـــلا أمســـى صـــريعاً فـــي الفـــلاة مجـــدّلا

لله درُّكمـــــــا ودرُّ أبيكـــــــما لا يبـــرح العبـــدانِ حتـــى يُقتـــلا

فعرف أهل المهلهل بما حدث له من غدر العبدين به فقتلوهما.

إنَّ التورية والرمز في هذه القصّة لم تمكّن المتلقَين، (العبدين)، أو (قوم المهلهل) من فهم المقصدية، واقتصر الفهم على ابنته، فالتواصل لم يكن مثالياً وإن حقّق غايته؛ لوجود التورية، ومن ثمَّ فتداول الخطاب بين المتخاطبين كي يكون

ناجحاً لا بدَّ له من معرفة المُرسِل لإمكانات المرسَل إليه الثقافية والعقلية المشتركة، ولذا طلب المهلهل من العبدين أن يُبلِّغا ابنتيه دون سواهما؛ لمعرفته من قدرتهما على فهم مقصديّته، وإن كان رمزاً، أو تورية.

إنَّ تنظير غرايس قد ينطبق على بعض أنواع الخطاب "الصادرة من سلطة عليا دنيوية، أو روحية، أي تفترض مرسلاً متسلطاً ومتلقياً خاضعاً، ورسالة شفافة لا إبهام فيها ولا غموض، ومتلقياً يعلم الظاهر وما يخفى" (مفتاح، 1992، 164)، فيكون آنذاك التواصل مثالياً، حيث المقاصد الثلاثية التي أشار لها وذُكرتْ آنفاً، فيما يرى (سيرل) أنَّ السلوك اللغوي مشتق من القصديّة وليس العكس وهو ما سيتّضح في الأفعال الكلامية لاحقاً إذ تفرض تحديد أشكالها ومعانيها الممكنة.

لقد اتخذ (غرايس) و(سيرل) الذات منطلقاً لخلق عملية التواصل، فغرايس حصر مقاصد المتكلم في التأثير في المتلقي، ودمج سيرل القصدية في نظرية (الفكر والفعل) وأرجع دراساته اللغوية الى منطلق ذاتي ونفساني، وكلاهما قلّلا من أهمية الطرف المجتمعي الذي يعطي التعابير اللغوية معناها بعد خلقها، وهو ما حاولت النظرية التفاعلية إقراره بعدّها المرسل والمتلقي على قدم المساواة، فاشترط سيرل "جعل المقصدية وسيلة للتمييز بين أنواع من الخطاب ... نعم نجد أغراضاً شعرية يصعب التفرقة بينها بمقياس واضح مثل شعر الحب البشري والحب الإلهي وشعر الخمرة الدينية والدنيوية، وأشعار التصوّف وبعض الأشعار الفلسفية، فقد يكون اللجوء إلى المقصدية ضرورياً في مثل هذا ولكنّه ليس كافياً وإنّما يجب أن يُعزَّز بالمعجم، والتركيب"(المصدر نفسه، 166). ومما سبق يتّضح أن المقصدية لا تكتسب معناها إلا بمقابلة مجتمعية.

الخاتمة:

لقد شكّلت المقصدية أو القصديّة في الدراسات التداولية مرتكزاً مهمّاً، انتظمت بقيّة أقسام التداوليّة، ومن ثمَّ استطاعت تلك الدراسات الخاصّة بالطابع القصدي ردّ الاعتبار (للمتكلِّم) بما يمثّل من أهميّة كبرى؛ بوصفه أحد أقسام العملية التخاطبية، خلافاً للدراسات والمناهج الأخرى كالبنيويّة التي نادت بموت المؤلّف، كما أنّها، أي المقصدية، عُدّت عنصراً فاعلاً في معرفة التضمينات الحواريّة للمعاني المُضمّنة في الخطاب.

واتضّحت من خلال المقصديّة أبعاد العملية التواصليّة، فيما يعنيه المتكلّم وما يفهمه المتلقّي من النص، على أن لا بغيب الفرق الدقيق بين المعنى والقصد؛ فقد يُدرك المعنى معجميّاً ودلاليّاً ويبقى القصد خافياً. وعلى هذا يمكن التأسيس بالقول: إنَّ المقصديّة تمثّل حلقة الوصل بين المتلفِّظ والمتلقي، وعليه فهي من أسباب نجاح التواصل الخطابي. ومن ثَمَّ فإنّها على ذلك أعلق بالأدب منه إلى اللغة؛ لما يحويه الخطاب الأدبي من انزياح في المفردات وتضمين للمعاني.

لقد تحوّلت الدراسات اللسانية من مجال اللغة إلى مجال الأدب بفضل توجهات التداوليّة الجديدة، وصار يطلق عليها التداولية الأدبية، فنقلت النص من الدراسات التي تناولته على المستويات النحوية والدلالية والمعجمية، إلى المستوى التداولي وأصبح موضوعها دراسة النصوص وتحليلها، والتركيز على مفهوم (التواصل) القائم على أساس الفهم والتأويل. فكان محلَّ اهتمام القراءة بوصفها تواصلاً يتحقق بين المتلقي والموضوع، فالوصفية النقدية وظيفة ترتكن إلى السعي لتحقيق التواصل الفعّال وتحتاج إلى الإحاطة بالعوامل الفاعلة فيه، وتمثّل مقاصد المتكلم حجر الأساس للمعرفة.

المصادر والمراجع:

• إبراهيم، محمد أبو الفضل. (1984). ديوان امرئ القيس (المجلد 4). القاهرة، مصر: دار المعارف.

• ابن جني، أبو الفتح عثمان. (1952). الخصائص (المجلد دون طبعة). (تحقيق: محمد علي النجار) القاهرة، مصر: الهيئة العامة لقصور الثقافة، مصورة عن طبعة دار الكتب المصرية.

• ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري. (1999). لسان العرب (المجلد 3). (اعتنى بتصحيحها: أمين محمد عبد الوهاب، ومحمد صادق العبيدي) بيروت، لبنان: دار إحياء التراث العربي.

• الأصفهاني، أبو الفرج علي بن الحسين. (2008). الأغاني (المجلد 3). (تحقيق: إحسان عباس، إبراهيم السعافين، بكر عباس،) بيروت، لبنان: دار صادر.

• أمبرتو إيكو. (2016). التأويل بين السيميائيات والتفكيكية (المجلد 3). (سعيد بنكراد، المترجمون) الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.

• آن ريبول، وجاك موشلار. (2003). التداولية اليوم علم جديد في التواصل (المجلد 1). (المنظمة العربية للترجمة، سيف الدين دغفوس، محمد الشيباني، ولطيف زيتوني، المترجمون) بيروت، لبنان: دار الطليعة.

• بدوي، أحمد أحمد. (1996). أسس النقد الأدبي عند العرب (المجلد دون طبعة). القاهرة، مصر: دار نهضة مصر للطباعة.

• بونفقة، نادية. (2011). فلسفة إدموند هسرل: نظرية الرد الفينولوجي (المجلد 2). الجزائر: ديوان المطبوعات الجامعية.

• ج. ب. براون، و ج يول. (1997). تحليل الخطاب (المجلد دون طبعة). (محمد لطيف الزليطني، ومنير التريكي، المترجمون) المملكة العربية السعودية: مطابع جامعة الملك سعود.

• الجاحظ، أبو عثمان عمر بن بحر. (1998). البيان والتبيين (المجلد 7). (شرح وتحقيق: عبد السلام محمد هارون) القاهرة، مصر: مكتبة الخانجي، مطبعة المدني.

• جاد المولى، محمد أحمد، والبجاوي، علي محمد، وإبراهيم، محمد أبو الفضل. (1961). أيام العرب في الجاهلية (المجلد دون طبعة). صيدا– بيروت، لبنان: المكتبة العصرية.

• الجرجاني، أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن. (1992). دلائل الإعجاز (المجلد 3). (قرأه وعلق عليه: أبو فهر محمود محمد شاكر) القاهرة، مصر: مطبعة المدني، مكتبة الخانجي.

• حمادي، إدريس. (1994). الخطاب الشرعي وطرق استثماره (المجلد 1). الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.

• حمداوي، جميل. (2019). التداوليات بين النظرية والتطبيق (المجلد 1). تطوان، المغرب: دار الريف للطبع والنشر الألكتروني.

• الحوفي، أحمد محمد. (1952). الحياة العربية من الشعر الجاهلي (المجلد 2). القاهرة، مصر: مكتبة نهظة مصر ومطبعتها.

• خطابي، محمد. (1991). لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب (المجلد 1). بيروت، لبنان: المركز الثقافي العربي.

• شمس الدين، إبراهيم. (2002). مجموع أيام العرب في الجاهلية والإسلام (المجلد 1). بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

• الشهري، عبد الهادي بن ظافر. (2004). استراتيجيات الخطاب مقاربة لغوية تداولية (المجلد 1). بيروت، لبنان: دار الكتاب الجديد المتحدة.

• صحراوي، مسعود. (2005). التداولية عند العلماء العرب دراسة تداوليةلظاهرة الأفعال الكلامية في التراث اللساني العربي (المجلد 1). بيروت، لبنان: دار الطليعة.

• الضبّي، المفضّل بن عاصم. (1964). المفضليات (المجلد 6). (تحقيق أحمد محمد شاكر، وعبد السلام محمد هاون) القاهرة، مصر: دار المعارف.

• عبد الرسول، عمر. (1985). ديوان دريد بن الصمة (المجلد دون طبعة). القاهرة، مصر: دار المعارف.

• عدرة، أشرف أحمد. (1994). ديوان عبيد بن الأبرص (المجلد 1). بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي.

• العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل. (1988). جمهرة الأمثال (المجلد 1). (تحقيق: أحمد عبد السلام، وأبو هاجر محمد سعيد بن بسيوني زغلول) بيروت، لبنان: دار الكتب العلمية.

• علي، أحمد يوسف. (1988). قراءة النص دراسة في الموروث النقدي (المجلد دون طبعة). القاهرة، مصر: مكتبة الأنجلو المصرية.

• علي، محمد محمد يونس. (2016). تحليل الخطاب وتجاوز المعنى نحو بناء نظرية المسالك والغايات (المجلد 1). عمّان، الأردن: دار كنوز المعرفة للنشر والتوزيع.

• الفرج، محمد حسين. (2004). شعر وشعراء اليمن في الجاهلية (المجلد 1). صنعاء، اليمن: وزارة الثقافة والسياحة.

• القالي، أبو علي إسماعيل بن القاسم. (2001). الأمالي مع كتابي ذيل الأمالي والنوادر (المجلد 1). (تحقيق صلاح بن فتحي هلل، وسعيد بن عباس الجليمي) بيروت، لبنان: مؤسسة الكتب الثقافية.

• القرطاجني، أبو الحسن حازم بن محمد. (2008). منهاج البلغاء وسراج الأدباء (المجلد 2). (تحقيق: محمد الحبيب،) تونس: الدار العربية للكتاب.

• القوّال، أنطوان محسن. (1995). ديوان المهلهل بن ربيعة التغلبي (المجلد 1). بيروت، لبنان: دار الجيل.

• كاترين كيبربرات أوركيوني. (2008). المضمر (المجلد 1). (مراجعة جوزيف شريم، وريتا الخاطر، المترجمون) بيروت، لبنان: المنظمة العربية للترجمة.

• المعيبد، محمد جبار. (1965). ديوان عدي بن زيد العبادي (المجلد دون طبعة). بغداد، العراق: دار الجمهورية للنشر والطبع.

• مفتاح، محمد. (1987). دينامية النص (المجلد 1). بيروت، لبنان: دار الكتاب العربي.

• مفتاح، محمد. (1989). في سيمياء الشعر القديم (المجلد 1). الدار البيضاء، المغرب: دار الثقافة.

• مفتاح، محمد. (1992). تحليل الخطاب الشعري استراتيجية التناص (المجلد 3). الدار البيضاء، المغرب: المركز الثقافي العربي.

• نحلة، محمود أحمد. (2011). آفاق جديدة في البحث اللغوي المعاصر (المجلد 1). القاهرة، مصر: مكتبة الآداب.